عشائر البـــــدو الرحل *

للدكتور خالد بك الخطيب [عمان]

وطنية البدوى !

من التأثيرات السيئة التى تركها إهمال ولاة الأمور لتربية البدوى ـ وهو المعروف بتفانيه فى الذود عن حياض وطنه فى الماضى ـ أن ذهنيته اليوم أصبحت خلواً من التفكير فى أمر وطنه ، وإذا وجد بين الألوف المؤلفة من البدو من يخطر على باله مثل هـذا الأمر ، فهو ندر من النادر ، وإذا حدثت أحدهم مرة عن قضية وطنية يحسبك تكلمه بلغة غير لغته ، وتجد أن اهتمامه يكون أشـد بكثير لأن يسمع منك حديثاً عن غزوات الموالى والحديديين مثلا ، وخصوصاً إذا كان ينتسب لاحدى هاتين القبيلتين المتخاصمتين ؛ وأما كفاح أمة عربية مع أمة أجنبية وفى سبيل استقلال بلاد برمتها ؛ فهذا أمر يظنون بل يعتقدون أنه لا يعنيهم كثيراً ولا قليلا .

الغزو عند العرب !

وعلى ذكر كلمة « غزو » أقول : إنه آفة الآفات ، وأعظم الداهيات ، وهادم البيوتات ، ومذهب اللذات ، وقاطع الصـلات ، وهو من أعظم البلايا التى نزلت بالأمة العربية منذ نشأتها إلى يومنا هذا، بل هو من أشد أسباب تقهقرها خطورة؛ فكم من سلب نافه لا قيمة له، سبب سفك الدماء البريئة بين قبيلتين عربيتين زمناً طويلا ؛ ولا أعجب من شىء عجبى من أن البدوى يعتقد أن الفوز أمر مشروع يحق له التفاخر به، مع أنه لو رجع إلى الصواب لتأكد بأن الغزو ما خرج عن كونه لصوصية ، ولكنها لصوصية علنية ؛ ويسرنى هنا أن أعلن شكر الأمة العربية لسمو الأمير « عبد الله المعظم » على جهود سموه التى بذلها ويبذلها فى سبيل مكافحة هذا الداء القتال ، ولا يفوتنى أن أشكر ـ أيضاً ـ كل ملك ، أو أمير ، أو زعيم عربى بذل أو يبذل فى هذا السبيل أى جهد محمود .

ومما يزيد فى ويلات الغزو على الأمة العربية شراً أن المستعمرين الذين يعرفون جيداً من أين تؤكل الكتف ، يستثمرون إضعاف العشائر بواسطته ، ويتخذونه سلاحاً لضرب العربى بالعربى، والنتيجة هى القبض على خناق الجميع ؛ فهل نحن متعظون ! ! أقسم أن قضية الموالى والحديديين التى سفكت فى سبيلها كل هذه الدماء البريئة كان سهلا على العرب التفاهم عليها

* هذا هو القسم الثانى من المحاضرة من ألقاها الدكتور خالد بك الخطيب فى مدرسة التجهيز بمدينة عمان (شرق الاردن) فى العام الماضى. وقد نشرنا القسم الاول منها فى عدد يناير سنة ١٩٣١ من السنة الاولى ص ١١٠٠.

وقمعها دون أن تأخذ هذا الطور الخطر ، لولا أن يداً أثيمة أجنبية لعبت دورها فى توسيع الخرق فيها ؛ ولو أردنا أن نعدد جميع الحوادث التى تؤيد هذا القول لضاق بنا الوقت ، وما كفى ذلك عدة محاضرات ! ! !

علم البدوى ودينه !

يكفى لتقدير مرتبة البدو العلمية أن نعلم أن الاحصاء النهائى لعدد المتعلمين عندهم ، هو أن لكل قبيلة « خطيباً » ، ومعنى الخطيب فى عرفهم هو الذى منّ الله عليه بنعمة القراءة والكتابة ، أو القراءة على الأقل .

ويكتفى البدوى أن يعلم عن دينه أنه مسلم مثلا ، وأن الله واحد ، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيه؛ويندر أن توفق إلى إيجاد بدوى يخبرك عن عدد الركعات بالضبط لأى وقت من أوقات الصلاة ؛ ومن القصة التالية تقدرون درجة معرفتهم لآى الذكر الحكيم :

ذهبت فى سنة ١٩٢٦ ومعالى الدكتور شهبندر ، من الأزرق إلى محل قريب منه،لرؤية بعض رجال من عرب الشرارات الذين كانوا نازلين ما بين قرى « الملح والأزرق » بقيادة شيخهم « بشير الشراري » ، فمكثنا عندهم قليلا ، وتحدثنا إلى بعضهم للؤانسة ، فسأل الدكتور شهبندر أحدهم : هل تعرف القراءة والكتابة ؟ قال : لا ، فقال له : هل تعرف شيئاً من القرآن ؟ قال : لا ، ولكن فلان ـ ثم أشار إلى أحد الجالسين يعرف القرآن جيداً ، فسأله الدكتور شهبندر : ما ذا تعرف من القرآن ؟ قال : أعرف سورة الناس ، فطلبنا إليه أن يسمعنا منها شيئاً ، فقال ـ وهو أعرفهم بالقرآن ـ : أعوذ برب الناس الخناس وعن الوسواس وعن الذى قرأ بقلوب الناس ! !

وما كاد يصل إلى هنا ، حتى كادت تميد بنا الأرض من فرط الضحك،ثم قلنا له : بالله ألا تعرف غير هذه السورة ؟ فقال : أعرف « الصمدية » فرجوناه أن يقرأها ، فقال لا فض فوه !! : الله أحد لا من يولد ولا يلد ولا هو يكفو أحد ! !

قلت : ومن علمك هذا القرآن ؟ قال : الخطيب ، قلت : أنعم وأكرم !!!

حياة البدوى المنزلية !

إن حياة البدوى المنزلية لا تعرف معنى للنظافة؛بالرغم من أن الله من عليه بالدين الاسلامى الحنيف وهو أشد الأديان حضاً على النظافة ، إذ جعلها من الايمان ؛ ومع أن الأوانى المنزلية التى اعتاد البدوى استعمالها فى بيته ـ لقلة عددها ـ لا تتطلب فى تنظيفها العناء الذى يصرفه الحضرى فى بيته لتنظيف أوانيه العديدة ، فإنك تجد أوانى البدوى فى غاية القذارة . وأما لباسه فليس

فى مقدور أحد ـ ولا حضرات رؤساء العشائر الحاضرين بيننا الآن ـ أن ينكر على قولى إن البدوى كثيراً ما يحول عليه الحول وأكثر من الحول دون أن يغير ثوبه ، فتصوروا حال الثوب الذى يستعمله صاحبه سنة فأكثر ، دون أن يغيره ، أو على الأقل يفكر فى غسله .

ومن الظلم أن يتوهم أحد أن إهمال البدوى نظافة بيته ولباسه ناشىء عن خسة فى طبعه ، كما هى الحال فى بعض الشعوب ، فإن من الخطأ الفادح إلصاق خسة الطبع بنفسية البدوى ؛ والحوادث التى تروى عن إقراطه فى الكرم الغريزى كثيرة لا يكاد يحصرها العد ، حتى إنك لا تكاد تصدق البعض منها ؛ وتظن أنها أسطورة من الأساطير ، أو خرافة كونتها الأوهام لكثرة المبالغة فيها ؛ مع أنها حقيقة واقعة ؛ وكثيراً ما شاهدت بعينى رأسى بدوياً يرتدى هو وأهله أقذر الألبسة وأبلاها ، ويقرى ضيوفه بما لو أراد أن يبتاع بقيمته ألبسة لبس أفخر اللباس وأثمنه لأمكنه ؛ فيتضح لك من هذا أن إهماله لنظافة لباسه ومسكنه ليس منشأه خسة فى طبعه ، ولكنه جهله معرفة طرق النظافة وعدم تعويده على ممارستها . ومما أذكره هنا بمزيد الأسف والشفقة : أن هذه القذارة فى حياتهم تسبب وفاة الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم فى كل سنة بداء (السل) ؛ فإن الاحصائيات التقريبية تدل على أن خمسين فى المائة منهم مصابون بالسل . إما الدرنى اللمفاوى ، أو الرئوى أو العظمى ؛ وهذا بالرغم من أنهم يعيشون فى الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس المحرقة ؛ وفى ذلك الجو الذى لا يعيش فيه باسيل السل بالسهولة .

***

هذه صورة مصغرة عن حالة البدوى ، وعن أخلاقه ، وعلمه ، ودينه ، ووطنيته ، وبالاجمال عن جميع نواحى حياته ؛ وأنتم ترون أنها صورة يتألم لمرآها كل عربى يغار على عروبته ؛ وهى حرية باهتمام الأمة اهتماماً يتناسب مع كرامة محتدها وغابر مجدها ، نعم ! يجب أن نلتفت لتحسين شئون هذا البدوى الذى بفضله وأدبه قام للعرب أدب تفاخر به جميع الآداب .

وفى شعره :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

قرأنا آية الإباء والاعتصام بالصبر لاستعادة الملك الضائع ؛ وهذه أسمى آيات الوطنية الصحيحة .

وفى قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها : إن الكرام قليل

[illegible]

قرأنا أنشودة الوفاء . ومن صبره وعدله وحنكته ودهائه ما سمعنا عن صبر أبي بكر الصديق وعدل عمر بن الخطاب وحنكة ابن العاص ودهاء ابن أبي سفيان .

ومن شجاعته وبريق سيفه عرفنا وقائع ابن الوليد وابن الجراح .

ومن مغامراته في الخطوب في سبيل المجد الخالد قرأنا صفحة فتوحات ابن زياد .

وفي قاعات (اكسفورد) ردد التاريخ فضله العظيم ، وعدد مآثره الجلى في سبيل الانسانية يوم ذكر «ابن سينا» و« أبو بكر الرازي» وغيرهما من فحول علماء العرب المتقدمين.

إن هذا البدوي ، هو منا ونحن منه ، ومن الظلم بل من العار وسبة الأدب أن نتركه تتقاذفه أمواج الجهل فيتخبط في ظلماتها على غير هدى لا يعرف أين المصير .

الدواء الناجع !

وإذا أطلت عليكم الكلام في وصف الداء ، فانني لا أرى داعياً للاطالة في وصف الدواء ، لأنه ينحصر في كلمتين مختصرتين يعرفهما كل واحد وهما : العلم والتحضير.

وهنا اسمحوا لي أن أذكر لمحة صغيرة عن الجهود التي بذلت في تعميم نشر العلم بين العشائر وتحضيرها ، وعند أي حد انتهت تلك الجهود :

في سنة ١٣٢٩ للهجرة أصدرت وزارة الداخلية للدولة العثمانية قراراً يقضي بتعميم تشكيل مدارس ابتدائية بين العشائر ، ثم ترقية هذه المدارس السيارة تدريجياً ، ثم انشئت في الآستانة مدرسة عسكرية خاصة لتعليم أبناء العشائر البدوية ، وقد أفادت هذه المدرسة بعض الفائدة ، فقد تخرج فيها عدد غير يسير من المتعلمين ، ومن هؤلاء ـ كما ذكرت سابقاً ـ المرحوم « عبد الحسن السعدون » وكثيرون غيره ، والذي أعلمه أن جميع الذين تخرجوا في تلك المدرسة تحضروا هم وأقاربهم ، غير أن أمد هذه المدرسة لم يطل ، فقد جاءت غطرسة الاتحاديين من الترك وقضت عليها . أما القرار بتعميم المدارس الابتدائية ، فقد أهمل إثر صدوره ، فكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً .

وبعد الحكومة العثمانية لم تهتم بهذا الأمر أية حكومة من الحكومات التي حلت محلها في البلاد العربية ، وإن كان هناك بعض المقترحات التي يقررون حصولها ، فانها لا تتعدى حد التقرير والتسجيل ، فكأنه من الوجهة العملية لم يحدث شيء ، هذا من جهة الحكومات ، وأما من جهة الأمة فانها لم يبذل حتى اليوم أي مسعى يذكر ، ولا فكرت أية هيئة من الهيئات العلمية العاملة بهذا الأمر ، مع أن أفضل الوسائل التي يمكن أن تتوجه بها نحو العشائر هي [illegible]

منظمة توجدها الأمة، وتشد أزرها الحكومات، ويساعدها على مهمتها زعماء القبائل وشيوخها.

اقتراح عملي !

ولي هنا اقتراح أود أن أختم به محاضرتي ، راجياً أن يلقى قبولا :

إن لكل أمة مستقلة جندية يقوم بأدائها شباب تلك الأمة ، وفريضة الجندية تعم كل فرد من أفرادها بلا استثناء ، فمن الممكن إذاً أن يحسب الشاب العربي المتعلم أن هذه الجندية فرض إجباري عليه نحو أمته ، فيتطوع لأدائها في مدة سنة كاملة بين أبناء أية عشيرة تختارها له جمعية منظمة تقوم لهذا الغرض ، فيعلم أبناءها ويكون جندياً مخلصاً لا للكفاح في الخنادق ، ولكن لمحاربة الجهل ، ويكون سلاحه القرطاس والقلم لا البندقية والمدافع .

هذا اقتراح عملي أبعث به من قلب مكلوم إلى آذان شباب العرب الناهضين ، فان الشباب أولى الجميع بأن يكونوا الجبهة الأمامية للقيام بأداء هذا الواجب ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل .

[عمان] خالد الخطيب

واجبك !.. هل أديته ؟

انك ستؤديه بلا ريب

أيها الشباب المثقف !

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ؛ وهي المجلة المصرية التي يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولغيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه